طبقات المجتمع التواتي من خلال الهجرات البشرية في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر ميلادي

أ. دوبالي خديجة
جامعة تيارت

في قلب الصحراء ووسط كتبان الرمال الذهبية وواحات النخيل الباسقة تتموقع إحدى أكبر الواحات الصحراوية الجزائرية قدما وحضورا، تاريخا وحضارة إنها منطقة توات ذاكرة الأمة المنسية. منطقة التاريخ الغابر ومعبر شتى أصناف الحوافر، منطقة تمازج أنواع السلالات وملاذ العباد والمستضعفين من كل الأوطان والإيالات، منطقة العشرات من الخزائن والمكتبات ومستودع الآلاف من المخطوطات والمصنفات، منطقة أعجوبة الألف فقارة وفقارة وموطن مئات الآلاف من أنواع النخيل والنباتات وحتى الحجارة.

لقد شكلت المنطقة بجماعاتها المتميزة واحدة من أنشط الجماعات التي سكنت الصحراء. أوصلوا أسواق شمال المغرب العربي بأسواق الجنوب السوداني عن طريق القوافل الذاهبة والآيبة، ومع هده القوافل اطلع التواتيون عن كثب على التيارات الثقافية والفكرية التي كانت شائعة عند عرب المشرق والمغرب. وفي الوقت نفسه قام فقهاء وعلماء توات بنقل ما عندهم من علوم ومعارف. كما ذكر القاضي "محمود كعت" أن كل جامعات الغرب الإفريقي ومساجده كانت خلال القرن الخامس عشر حتى القرن السابع عشر ميلاديين حافلة بالطلبة والعلماء من منطقة توات. ويضيف السعدي مدعما رواية القاضي محمود أن قائمة العلماء المشهورين في مساجد وجوامع مدن الغرب الإفريقي ومراكزه الحضارية يشكل التواتيون من بينهم نسبة تقارب النصف. كل هدا وغيره ما كان ليوجد لولا اتحاد جملة من العوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية نذكر من بينها على سبيل المثال لا الحصر العنصر الأمني الشغل الشاغل للإنسان في كل مكان وزمان. إضافة إلى توفر عنصر الماء وبآلية عجيبة وفريدة من نوعها وهي ما يعرف بنظام الفقارات.

كل هده العوامل جعلت من إقليم توات يستقطب خلال فترات متعاقبة العديد من القبائل البربرية والعربية والزنجية، مما جعل المجتمع فيه يقوم على التمايز الطبقي، فتأتي طبقة الأشراف ورؤساء القبائل والمقاطعات في الدرجة الأولى، ثم تليها طبقة الأحرار من العامة، فطبقة الحراثين والعبيد. وتميز المجتمع التواتي على غرار سكان المناطق الجزائرية خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين بخصوصيات، إلا أن الدراسات الموضوعية في هدا المجال قد تكون قليلة، وإن وجدت فإنها عبارة عن كتابات عامة، فالبحث في هدا المجال يحتاج إلى التعامل معه بكثير من الدقة والبحث والتنقيب. وما قدم في هدا البحث ما هو إلا القليل من ما يستحقه هدا الإقليم،

فتخصص مجال البحث في هده الدراسة على أهم الفئات التي كان يتكون منها المجتمع التواتي، وحاولنا ربطها ببعض حواضر المغرب الإسلامي سواء من حيث النشاط الاقتصادي، أو الأصل والنسب.

إن هجرة الكثير من القبائل البربرية والعربية من بعض حواضر المغرب الاسلامي طلبا للأمن والحياة الكريمة والاستقرار، كان عاملا في انصهار العديد من القبائل المختلفة في الأصل والنسب في مجتمع واحد، فأثروا وتأثروا، ونخص بالذكر طبقة المرابطين والأشراف، الدين هاجروا من المغرب الأقصى إلى منطقة توات واستقروا بها لما وجدوا في سكانها حسن الضيافة والكرم والاحترام والتقدير. كما أن العلماء الدين مثلوا فئة مميزة في المجتمع التواتي لما جابوا أنحاء مختلفة من المغرب، ومنهم من هاجر من موطنه الأم نحو إقليم توات، فساهموا في تميزه العلمي والثقافي مقارنة بالأقاليم المجاورة له. وساهمت النشاطات الإقتصادية بشكل جلي وواضح ونخص بالذكر هنا التجارة، في ربط علاقات متشعبة مع مختلف المناطق سواء الشمالية منها أو الجنوبية، وبالتالي لعبت فئة التجار دورا مهما وبارزا في تأسيس علاقات أثرت بصورة مباشرة على كل جوانب حياة المجتمع التواتي .

وانطلاقا من هده المعطيات التاريخية فلقد ضم المجتمع التواتي في تركيبته الاجتماعية فئتين، الفئة الخاصة والتي شملت على الكبراء والأعيان وأصحاب الجاه والنفوذ من رؤساء شيوخ القبائل والمقاطعات، الدين تمتعوا بكامل الصلاحيات في تسيير شؤون الإقليم دون تدخل من المخزن. وكان لكل مقاطعة من مقاطعات توات[1] رئيسا أو شيخا يتولى شؤونها الإدارية والاقتصادية، ويساعده في أداء مهامه على أكمل وجه مجموعة من الأعوان والموظفين. وتشمل فئة الخاصة أيضا الأشراف والمرابطين أصحاب الأراضي الواسعة. وفئة القضاة والعلماء الدين كرسوا جهودهم لخدمة الأهالي من حل نزاعاتهم ومشاكلهم وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم. فكانوا محل ثقة كل الناس، لهدا تمتعوا بمكانة سامية ومرموقة شأنهم شأن الأشراف والمرابطين في دلك. كما تضم الفئة الخاصة كبار التجار من البربر والعرب الدين استطاعوا من خلال تجارتهم مع بلاد السودان أن يجمعوا ثروة كبيرة من الذهب، مما أدى إلى ضرب العملة بعدما كانت تتم الصفقات التجارية بالمقايضة.

وأما الفئة العامة فتشكل غالبية سكان توات، وتندرج تحتها قبائل البدو والرحل أصحاب المواشي والمزارعين من طبقة الحراثين الدين يعملون عند ملاكي الأراضي من الأشراف والأحرار، وفئة الحرفيين المنتشرين في الأسواق، وفئة العبيد الدين سخروا لخدمة الأرض وحفر الفقارات[2] وكل الأعمال الشاقة التي يأبى الأسياد ممارستها.

1-الفئة الخاصة:

أ)–رؤساء القبائل والمقاطعات: كان مجلس الجماعة هو المجلس الداخلي، ينظم ويسير شؤون السكان. ورؤساء شيوخ القبائل والشرفاء هم أصحاب الرئاسة المطلقة، إذ يمثلون السلطة العليا في تنظيم شؤون المجتمع التواتي[3]. ولقد احتكر مشاييخ تمنطيط[4]هده المسؤولية إلى غاية نهاية القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر ميلادي، إذ استأثر به شيوخ تيمي بعد أن انتقلت العاصمة من تمنطيط إلى تيمي، وسبب الانتقال هو الصراع الدي نشب بين القبائل العربية[5] التي استوطنت المقاطعتين[6]، من أولاد أحمد[7] وأولاد نسلام[8] وأولاد يحي وأولاد غنوم[9]. ويتألف مجلس القبيلة من رؤساء الأفخاذ الذين ينتخبون من بينهم رئيسا لمجموع القبيلة، ويقوم بجانبه مجلس قبلي منتخب يسمى الجماعة، له وحده حق التشريع والبث في الخلافات القائمة بين القبائل، ويشرف عليه رئيس دائم. وتستعين الجماعة برجال الفتوى من الفقهاء والعلماء من أجل الاستشارة وأخذ الرأي الحكيم والصالح، وكان مصدرهم في دلك الأعراف والعادات التي يحكمها الشرع بناء على قاعدة المصالح المرسلة. أما ولاة الأقاليم المشرفين إداريا على المناطق المختلفة نيابة عن السلطان المغربي، فكانوا يعملون بظاهر الشريعة[10].

وشيخ المقاطعة هو الحاكم الفعلي، الذي كان بمثابة الجهاز التنفيذي وصاحب السلطة المطلقة، يتصرف في كل الأمور الإدارية والاقتصادية. ورغم بساطة الجهاز الإداري إلا أنه كان يضمن الحياة المنتظمة ويحقق الأمن والسلام لكافة السكان. وقد لاحظ الرحالة البرتغالي المجهول. صاحب "وصف المغرب في عهد المنصور السعدي" مدى إحكام النظام السياسي التواتي بحيث كتب يقول في الموضوع:" إن النظام السياسي في توات كان احكم وأعلى منه في معظم المجتمعات الإسلامية بإفريقيا الشمالية"[11].

ومن مهام شيخ المقاطعة استقبال الوفود والمبعوثين الدين يصلون إلى الإقليم، كما يستلم الخطابات والرسائل المبعوثة من قبل سلطان المغرب[12]، ويقوم بالرد عليها[13]، كما كلف بتوزيع الضرائب السنوية المفروضة على مقاطعته من قبل ممثل السلطان[14]. وكان مقره بتمنطيط ثم انتقل إلى أدرار بعد انتقال العاصمة إلى تيمي.

ونظرا لما كانت تتطلبه الحياة اليومية من إشراف وتنظيم في كل الجوانب الدينية والتعليمية والاقتصادية، اقتضى الأمر تعيين عدد من الموظفين، وهم بمثابة أعوان يعملون تحت مسؤوليته وإشرافه، ويتمثلون في: الوقاف وكيال الماء والبراح ووكيل المسجد والإمام والمؤذن.

فالوفاق هو رجل الشرطة في البلدة، مكلف بحراسة أبواب المدينة والتعرف على الغرباء والأجانب واستقبالهم ومصاحبتهم إلى دار الضيافة، التي يكون عليها الدور في استقبال هؤلاء الضيوف. وله أعوان وعيون في القبائل المعادية يخبرونه بجميع تحركاتهم، فإذا تقدم الأعداء من المدينة تدق الطبول إيذانا باقترابهم، فيهم شيخ البلدة إلى حشد القوات لمواجهتهم[15].

أما كيال الماء فدوره تمثل في تحديد نصيب كل الفرد من الماء، وقياس ماء الفقارة في بداية كل موسم، ونظرا لخبرته ونزاهته حظي بثقة واحترام جميع السكان[16]، وخصص له سنويا حصة من الثمر والحبوب نظير الجهود التي يبذلها.

في حين كلف البراح أو المنادي بإعلام السكان بكل مستجدات المنطقة من زواج أو جنائز، وإبلاغ المتخاصمين لحضور مجلس الحكم عند القاضي[17]. ومن الوظائف الدينية والتعليمية وكيل المسجد الذي يشرف على الأموال والأحباس الموقوفة، كما يقيم مراسيم الزواج والطلاق. أما الإمام فكان يؤم السكان في الصلاة، ويعلم الصبيان في الكتاتيب، مقابل حصة من الثمور والحبوب، يقدمها له أولياء الصبية عند الحصاد[18]. في حين كلف المؤذن بتنظيف المسجد وفتحه وغلقه، أما راتبه فكان عبارة عن حصة من الثمر والحبوب تقدم له سنويا[19].

ب)- الأشراف والمرابطون: احتل الأشراف مكانة سامية داخل الإقليم نظرا لنسبهم الشريف الذي يعود إلى آل البيت، فتمتعوا باحترام وتقدير كل السكان، إذ كانوا يتسارعون إلى طلب الرضا والبركة منهم، فكان لهم بدلك النفوذ الواسع ليس في إقليم توات فقط بل عبر مختلف مناطق الصحراء الواسعة. وكانت جميع القبائل التواتية تتحالف لنصرتهم والدفاع عنهم، ففي سنة 1008هـ/1599م قدم إلى توات الشريف مولاي أحمد الوزاني، فاستقبله التواتيون بحفاوة كبيرة وقدموا له العطايا والهدايا، ولما هاجمه الغنانمة أرجع إليه شيخ الزاوية الكرزازية قافلته وأعيد مكرما إلى المغرب[20].

ومن صلاحيات الأشراف الفصل في النزاعات والخصومات التي كانت تحدث بين مختلف القبائل التواتية، فهم موضع ثقة ويتمتعون بحظوة كبيرة لدى سلطان المغرب وشيوخ مقاطعات الإقليم. ولقد خصص لهم رؤساء توات نصيبا من بيت مال المسلمين سنويا إكراما لهم ولنسبهم الشريف. وكانت تبعث لهم الهدايا والعطايا من قبل المخزن، مثال دلك ما أمر به السلطان المغربي سنة 1211هـ/1797م من توزيع العطايا على جميع الأشراف العلويين المتواجدين بالواحات، وكلف كل من القضاة التالية أسماؤهم بهده المهمة: مولاي بن حشم وسيدي باهيا. ولقد قدرت قيمتها بـ 2500 مثقال[21].

والملاحظ أن أشراف الأدارسة لم ينالوا من هدا العطاء السلطاني، فاشتكوا إلى السلطان الدي أجابهم في رسالة مؤرخة في سنة 1231هـ/1799م، يأمر من خلالها خدامه بإشراكهم في الهدية المرسلة دون تهميش العجزة والمعوزين[22]. الأمر نفسه حدث سنة 1244هـ/1828م، إذ وزعت العطايا على كل من الأدارسة والعلويين المستقرين بالمنطقة، فخصص لكل علوي ما قيمته مثقالا ودرهما، فيما تحصل الأدارسة على خمس أوقية[23] وموزنتان.

كما تحصلت هده الفئة المميزة على الإقطاعات الوفيرة من الأراضي الصالحة للزراعة، وامتلكت العديد من العبيد الدين سخروا لخدمتهم. ولم يكن الأشراف يزاولون أي عمل لاعتقادهم أن

دلك يحط من قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية، وأما نظرتهم لفئة الحراثين والعبيد فكانت نظرة تعالي وتكبر، وهو نوع من التمييز الذي كان سائدا بالواحات التواتية، وظل كدالك إلى غاية السبعينات من القرن العشرين ميلادي. كما كانت لهم محاكمهم الخاصة بهم، أين كان يتولى الإشراف على قضاياهم أحد رؤسائهم، أو النقيب الذي كان يعين بظهير سلطاني[24] لصفات كانت تتوفر فيه أهمها، الصلاح وحسن السيرة والحكمة[25].

في حين انتسب المرابطون[26] إلى جد مرابط أو سلالة عالمة، اختص أحد أجدادها بضريح من الأضرحة التي لا تزال قائمة إلى حد الآن، وبركة الجد المرابط سارية في كافة أعضائها، وهدا ما يمدها بمزيد من الاعتزاز والتمييز عن الآخرين. وهم يتمتعون بمكانة مرموقة، محترمين وموقرين من طرف جميع المجتمع التواتي، هدا ما جعل القائمون على تسيير شؤون المنطقة يإعفائهم من دفع الضرائب[27]، كما خصصوا لهم نصيبا من بيت مال المسلمين يضمن لهم الحياة الكريمة.

ولا يخلو قصر من قصور توات من ضريح أحد الأولياء الصالحين، ويحرص جميع التواتيين على الاحتفال بذكراهم سنويا، بإقامة ما يسمى بـ "الوعدة" وتقديم الصدقات إكراما لهم. ولقد جاء في خطاب السلطان سليمان الموجه إلى أهل توات والمؤرخ في 23 صفر من سنة 1215هـ/1800م، أن توات تتميز بوفرة أهل الفضل والدين من الأشراف والمرابطين عكس قورارة[28] التي كانت تخلو من ذلك.

وكان سلاطين المغرب يرسلون في طلب البيعة من أهل توات خاصة من المرابطين، بحيث عثر في زاوية سيدي البكري على خطاب وجهه السلطان عبد الملك في ربيع الثاني من سنة 1140هـ/1727م إلى المرابطين من أولاد سيدي بكري، وسيدي محمد، وزاوية كنتة، وأهل عريان الرأس، وأولاد الشيخ بن عبد الكريم، والشيخ بلقاسم، وأبناء الشيخ علي بن موسى في تمنطيط طالبا منهم البيعة، فحرروها له ووصفوه بأمير المؤمنين وحامي الملة والدين وخليفة رب العالمين[29].

ج)- القضاة: من بين العوامل التي ساعدت التواتيين على استقرارهم وتنظيم حياتهم وجود هيئات قضائية تسهر على حل مشاكلهم ونزاعاتهم. فخصص لأجل دلك على مستوى كل القصور والمدن قضاة، يكونون من رجال العلم والدي، أمثال دلك: الشيخ أبي يحي بن محمد المنياري، وهو أول من اشتغل بالقضاء في المنطقة. ثم تولاه الشيخ يحي بن يدير التدلسي[30] وبعده جاءت عائلتي العصنوني[31] والبكري[32] اللتان احتكرتا هده الوظيفة وأخضعاه لعامل الوراثة، ثم برزت عائلة البلبالي التي تولى الشيخ محمد بن عبد الرحمن البلبالي[33] وابنه عبد العزيز[34] من بعده.

ومن مهام القاضي النظر في المسائل الشرعية كالطلاق والنفقة والإرث والحلال والحرام، والفصل في المنازعات التي تحدث في البيع والشراء، كما يبحث في الدعاوى التي كانت تعرض عليه، والمتعلقة بالغش والسرقة والقتل والضرب. ويتولى أيضا الإشراف على الموازين والمكاييل بالأسواق العامة، إذ خضعت هده الأخيرة بما فيها الحوانيت التجارية لرقابته.

وساعده في تأدية مهامه مجموعة من الكتاب، كلفوا بتسجيل كل القضايا والأحكام التي يتم الفصل فيها بعد استشارة غيره من الفقهاء في القضايا المطروحة بين يديه، باستثناء قضاة العصر العاشر الهجري الموافق للتاسع عشر ميلادي الدين استغنوا عن المشاورة واستقلوا بأحكامهم، مع أنه كان من العرف السائد في المنطقة أنه لا يجوز للقاضي إصدار الأحكام دون استشارة غيره من العلماء[35]، إلا إذا كان عدلا من أهل الاجتهاد.

هذا عن الكتاب، أما الرسول فكان ينادي في الناس لإبلاغ المتخاصمين بضرورة حضور مجلس القضاء للفصل في قضيتهم المروحة، ويتوعد القاضي بالعقاب الشديد كل من كان يتخلف عن الحضور. وهدا ما أكدته لنا إحدى النوازل التي ذكرت بأن " شخصا ادعى المرض حتى لا يحضر مجلس القاضي للتحاكم في أمر يخصه"[36]. وهذا إن دل على أمر فإنه يدل على أن الحضور لجلسة المحاكمة كان إجباري.

وتمتع القاضي بمكانة سامية ومرموقة شأنه في دلك شأن المرابط والشريف، إذ حظي باحترام وتقدير الجميع، ولأن معظم الشخصيات التي تولت القضاء كانت من أشهر رجال العلم والدين، وتنحدر من أسر كبيرة وشريفة أو مرابطة دفع بمشايخ توات إلى استمالتهم كسبا لرضاهم. ونظير الجهود التي كان يبدلها القاضي من أجل إخلال العدل والمساواة بين مختلف شرائح المجتمع التواتي خصص له شيوخ المقاطعات راتبا سنويا يقتطع من بيت المال،[37] حتى يضمن له الحياة الكريمة، ويكون حافزا له على أداء مهامه على أحسن وجه.

د)- العلماء: كانت توات منار للعلم وسط الصحراء، مدت بلاد السودان الغربي بالثقافة والحضارة الإسلامية، وأنجبت رجال جهابذة أسهموا في دعم الكيان الحضاري والعلمي للمنطقة. فاشتهر الإقليم بزواياه التي جمعت بين التعليم وتقديم المساعدات الخيرية للطلاب الذين كانوا يرتادونها من أماكن بعيدة كانت أو حتى القريبة منها. كما اهتم التواتيون إلى جانب العلوم الدينية واللغوية من فقه وتفسير، وتوحيد وبيان، ومنطق ونحو، بتاريخ بلادهم فكتبوا في مناقب أهلها وتواريخهم وحياتها العلمية.

فألف السيد أحمد بن يوسف التنلاني صاحب زاوية" رزق الله الواسع لعباده النافع" تاريخا مطولا عن أصل أهل توات يقع في ثمانية نسخ، إلا أن هده الأخيرة لم يعثر عليها والواقع أنها نقلت من أولف إلى بلاد السودان.

كما وصف لنا السيد عبد الرحمن بن عمر التواتي المجاعة الكبرى التي جرفت بالإقليم سنة 1070هـ/1659م، وكان سببها أسراب الجراد التي قضت على الزرع، فحصد بدلك الموت الآلف من أرواح السكان[38].

كما ألف محمد الطيب بن عبد الرحيم كتابا أسماه " القول البسيط في أخبار تمنطيط". تعرض من خلاله إلى ذكر القبائل البربرية والعربية التي نزلت بتوات، وخصص فصلا لعلماء

تمنطيط ترجم فيه أشهر الشخصيات التي تولت القضاء. وغيرها من المؤلفات التي خدمت تاريخ المنطقة وسكانها.

والواقع أن توات كانت مركز إشعاع علمي، برز في كل مركز من مراكزها علماء أجلاء ساهموا بمؤلفاتهم في إثراء المكتبات والخزائن. ومن أشهر المراكز التعليمية في الإقليم نذكر كل من مركز تمنطيط وملوكة وبودة وتيمي. كما تعد زاوية كنته وخزانة قصر ملوكة من أعظم المكتبات في المغرب، هدا إلى جانب الخزانات التي كانت تمتلكها عائلة البكري بتمنطيط والتي كانت تضم العديد من المخطوطات النفيسة والثمينة.

هـ)- التجار: يعتبر إقليم توات مركز تجاري ونقطة عبور القوافل بين الشمال، والمناطق المطلة جنوبا على الصحراء، فازدهرت بدلك التجارة في الصحراء إذ أخذت القوافل التجارية تنتقل باستمرار من شمال المغرب إلى السودان. وواحات توات كانت عبارة عن ممالك وإمارات صحراوية صغيرة يسيطر على أقدارها السياسية كبار التجار والأثرياء. فشكل بدلك التواتيون أكبر جالية تعمل في التجارة بمنطقة النيجر الأعلى، تتولى استقبال القوافل القادمة من الشمال وتوزيع بضائعها على مختلف المدن السودانية. وكانت الطرق التجارية وحجم المبادلات تتغير باستمرار بتغير الأوضاع الأمنية والاقتصادية والسياسية في مناطق العبور، وفي المحطات النهائية.

ومن أزهى عصور التجارة الصحراوية كانت خلال القرنيين التاسع والعاشر الهجريين الموافق للخامس والسادس عشر الميلاديين[39]، اهتم التواتيون فيها بصورة خاصة بقوافل التجارة الصحراوية التي تغدو وتروح بين موانئ الشمال الساحلية ومدينة تمبكتو في أعماق الصحراء الجنوبية، ومن ضمنها القوافل التي تنطلق من وهران وتلمسان وفاس ومراكش، وتمر على واحات توات في ذهابها وإيابها[40].

وتبدأ القوافل رحلتها في بداية السنة، إذ يجتمع التجار في أعداد كبيرة بهدف السفر، وتأمينا للحراسة اللازمة ضد هجوم القبائل الغازية. ويتولى التجار توات رئاسة قوافلهم بأنفسهم بالاعتماد على الأذلاء والتوارق العارفين بمسالك الصحراء الوعرة، ويأخذون بالمقابل عمولة يقدمها لهم التجار بعدما يصادق عليها قاضي المدينة، وأغلبهم كانوا من قبائل أولاد زنان وأولاد المختار[41]. وتعد الجمال الوسيلة الوحيدة للسفر ونقل البضائع والسلع والأمتعة. فكان التواتيون يزودون بلاد السودان بمختلف السلع المحلية وسلع الشمال من السكر والقهوة والملابس المطرزة والأسلحة والثمور والحناء والشمة، بالمقابل يأتون بالعبيد وتبر الذهب وسبائكه وريش النعام وبيضه وملح الطعام والسمن ومادة النيلة للصباغة والجلود وبعض الأنسجة الملونة، وغيرها من السلع والبضائع، وجميعها كانت تعرض في أسواق توات للبيع.

ومن كبار التجار الذين برزوا في المنطقة نذكر القائد دحمان الذي عاش في توات وارثا الرئاسة من والده عابدين بن بيروك، فكانت قوافله كقوافل قريش تتردد بين السودان وتمبكتو

والساقية الحمراء ومراكش، وتصل أحيانا إلى جنوب مصر. والثراء الذي يتحصل عليه التجار من وراء الصفقات التجارية الرابحة كان يسخر في أعمال الخير والبر والإحسان، فلقد ساهم الكثير منهم في تقديم المساعدات للمعوزين والمحتاجين من الفقراء والضعفاء والمساكين، كما اهتم الأثرياء بالإنفاق على طلبة العلم[42]. وبالرغم من أن المجتمع التواتي كان طبقي إلا أن روح المؤاخاة والتعاطف والتكافل الاجتماعي ساد بين أفراده، إذ وحدت بينهم العادات والتقاليد والأعراف، وانتشرت فيهم القيم الأخلاقية والإنسانية، وهدا بشهادة كل الرحالة الدين زاروا المنطقة وأكدوا على طيبة وكرم سكانها.

2)- الفئة العامة:

أ)- أصحاب الماشية: يعتبر إقليم توات مكانا غنيا بالمراعي الجيدة، ولقد اعتمد البدو الرحل من البربر والعرب في معاشهم على الرعي، فاهتموا بتربية الأنواع المختلفة من الحيوانات كالأغنام والماعز والإبل، منتجعين مراعي الكلأ في مجموع الصحراء. ويعد اللحم غداءهم الأساسي، أما شرابهم فهو الألبان. ولا يستطيع البدو تربية نسبة كبيرة من رؤوس الأغنام والماعز والأبقار والإبل، مما جعلهم يقتاتون من جميع أنواع الحيوانات وجلودها. وكان الجوع حليفهم، وتدهورت أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية فأصبحت حياتهم جد قاسية وصعبة، فمهنة الرعي لم تعد توفر لهم حياة الكفاف والاستقرار كما في الماضي، واضطرت إثر دلك معظم القبائل الرعوية إلى الهجرة[43]، كما ترك العديد منهم حياة البدو وانتقلوا نحو المدن طلبا للعمل في الزراعة أو التجارة.

ب)- المزارعون: تمثل الزراعة المورد الاقتصادي لدى غالبية سكان إقليم توات، ويتم سقي المزروعات بمياه الفقارات، لأن الأمطار نادرا ما كانت تسقط بالمنطقة. وتشكل الزراعة مصدرا أساسيا للعيش، كما ساهمت في إيجاد بعض الحرف الموسمية كتجهيز الثمور والحناء والتبغ للتخزين، ومن سعف النخيل كانت تصنع مختلف الأدوات والوسائل المستعملة في الحياة اليومية من القفف والسلاسل والحصير والحبال والمكانس. ومعظم الأراضي الخصبة يمتلكها الأشراف والمرابطون الأحرار، وهم لا يمارسون حرفة الزراعة معتقدين أن دلك يحط من قيمتهم ومكانتهم الاجتماعية على حد زعمهم، لدا يفضلون ممارسة التجارة مع بلاد السودان الغربي.

وتضم فئة المزارعين الحراثين والعبيد، فهاتين الفئتين سخرتا لخدمة القصور والأراضي الفلاحية وحفر الفقارات، وهي من الأعمال الشاقة التي تتطلب جهدا عضليا كبيرا. ومن أهم المنتوجات التي كانت تنتجها الواحات التواتية نذكر الثمور، إلى جانبها القمح والشعير وقليل من الدرة، وهما أساس الوجبات الغذائية لعامة السكان، كما كانت تزرع بعض الخضروات والفواكه مثل الجزر واللفت والفلفل والكرنب والبصل والطماطم والقرع والعدس والبازلاء والكمون والرمان والتين والعنب والبطيخ[44]. ومن المنتوجات الأساسية التي كانت تصدر إلى الخارج الحناء والتبغ.

ولقد عانى التواتيون الكثير من المشاكل التي كانت تواجههم من حين للآخر، وتمثلت في مرض خطير كان يصيب النخيل يعرف بـ البيوض. كما كان لمناخ توات الجاف تأثير سلبي على الزراعة، فندرة تساقط الأمطار وارتفاع درجات الحرارة يؤديان إلى حدوث الجفاف، فتتقلص بدلك نسبة الأراضي المزروعة، ولولا نظام الفقارات لما استمر السكان في ممارسة الزراعة. كما أن غزو أسراب الجراد للمنطقة أثر سلبيا على الفلاحة والفلاحين معا. ونستنتج مما تبين أن الزراعة كانت أقل شأنا من التجارة التي ازدهرت ازدهارا كبيرا في المنطقة.

ج)- الحرفيون: مارس التواتيون العديد من الحرف والصناعات اليدوية داخل بيوتهم ودكاكينهم، وأهم حرفة اشتهر بها الإقليم غزل ونسج الصوف والقطن، وهو عمل اختصت به النسوة داخل منازلهن. كما برعوا في صناعة الأبسطة والأغطية المختلفة الأشكال والمقاسات والألوان ، والتي تعرف بـ "الدكالي"[45]، هدا الأخير اكتسب شهرة كبيرة داخل وخارج المنطقة. كما اكتسبت صناعة الفخار أهمية خاصة، سواء من حيث حجم الاستهلاك، أو من تنوع الأدوات المصنوعة.

كما برع التواتيون في الصناعات الجلدية كصناعة الأحذية، وتجليد الكتب والسيوف، والعلب[46]. وتخصص اليهود في صياغة الذهب والفضة، فكانوا يشترون المادة الخام من القوافل القادمة من بلاد السودان فيقوموا بتحويلها إلى حلي على اختلاف أنواعها وأشكالها، وكان تواجدهم بأسواق المدن الكبرى كتمنطيط وتطاوين وأولاد إبراهيم.

وانتشر في الأسواق التواتية العديد من الحرفيين الدين كانوا يزاولون في الحوانيت مختلف الحرف، من الحدادة إلى النجارة والصياغة والعطارة والجزارة. وكان الدلالون يجوبون بيوت السكان لعرض سلعهم للأشخاص الدين لا يستطيعون الخروج إلى الأسواق. وجاء في نوازل الغنية أن الدلال إن ادعى تلف بعض السلع التي في حانوته عليه ضمانها، إلا في حالة ما إدا كان معروفا بالخير والصلاح فلا شيئ عليه، والأمر نفسه بالنسبة للسماسرة والمأمورين والوكلاء فهم لا يضمنون شيئا لأنهم أمناء وليسوا بصناع سواء كانوا أرباب حوانيت أو غير ذلك[47]. واستخدم أصحاب الدكاكين الحراثين للقيام بكل الأعمال التي يأبون انجازها.

د)- العبيد: أصبحت تجارة الرقيق هي التجارة الرئيسة بتوات إلى جانب تجارة الذهب، وتعتبر بلاد السودان المورد الأساسي للعبيد المجلوبين إلى المنطقة، ومن أهم المدن التي كثر بها الرقيق تمبكتو وكوبر بورنو، وعرف عن ملك هده الأخيرة أنه كان يستبدل العبيد بالخيول، فيدفع ثمن كل شيئ بالعبيد بدلا من الذهب، ويأخذ التجار مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبدا[48]. وكانت رحلة العبيد عبر الصحراء شاقة وطويلة تصحبها أخطار عديدة كهجمات قطاع الطرق والتقلبات المناخية من العواصف الرملية وشدة الحر والبرد القارص، إلى جانب التعب الشديد وقلة الزاد والمؤونة، وكلها تؤدي إلى موت العديد منهم قبل وصولهم إلى توات. وكان يباع العبد الصغير في السن والإماء بأثمان باهضة، بينما كانوا كبار السن يباعون بأثمان بخسة[49].

وبادر أعيان توات إلى تهذيب العبيد وتعليمهم بهدف دمجهم في المجتمع التواتي، ونالت الجواري تكوينا منوعا ورفيعا، وارتقى البعض من العبيد إلى درجات عليا. وللعبيد أحياء خاصة بهم بينها وبين القصور التي يقيم بها أسيادهم مسافة فارغة لا يسكنها أحد[50].

كانت لنا في هده المبادرة محاولة في تصفح وتلمس البعض من معالم المجتمع التواتي، علها تكون بادرة خير نحو اهتمام أكبر بتاريخ المنطقة، والحقيقة أن منطقة توات وإن اشتركت عوامل تاريخية عدة في طمس كثير من معالمها التاريخية، وإبعاد ما تبقى عن عيون الكتاب والباحثين عموما، إلا أن المسؤولية الأساسية هنا تنطلق أولا من عتبة أبواب كثير من القائمين على مجال البحث محليا ووطنيا وحتى لما لا دوليا، وإيمانا منا بمساهمة الجميع في الحفاظ على الذاكرة حول رحلة البقاء وما أصعبها من رحلة.

هوامش البحث:

1-**توات:**اختلفت الروايات حول أصل التسمية الكلمة، فهدا محمد رصاع جعلها اسما لأحد بطون الملثمين. ينظر: فهرست الرصاع، تحقيق وتعليق: محمد العنابي، تونس، المكتبة التيقية، 1976، ص، 127. في حين دكر آخر أن أصل الكلمة جاء من منطقة تكرور . ينظر: الطيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية في السودان، دار الكتب الحديث، ط1، 1415هـ/1994م، ص، 275. وأما محمد بن مبارك ،

فأرجع أصل الكلمة إلى الأعجمية وقد أطلقها قبائل من لمتونة على المنطقة. ينظر: فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للكتاب، 1977، ص: 2.

2-الفقارات:اشتق اسم الفقارة من "الفقر" الذي هو الحفر، قولك "فقر" أي "حفر"، و"الفقاقير" جمع "فقارة". والفقارة هي عبارة عن سلسة من الآبار بين كل بئر والآخر مثل درجات السلم نفق يبدأ العمل فيها من مكان عال وينحدر من أعلى إلى أسفل. ينظر: محمد باي بلعالم، الرحلة العلية إلى منطفة توات لذكر بعض الأعلام والآثار والمخطوطات والعادات وما يربط توات من الجهات، ج:1، الجزائر، دار الهومة، 2005م، ص: 70.

3-أحمد العماري، توات في مشروع التوسع الفرنسي بالمغرب من حوالي 1850 إلى 1902، المغرب: كلية الآداب بفاس، ص: 35.

4-تمنطيط:اسم أعجمي مركب من اسمين وهما: "إتما" و"تط"، ومعنى الأول النهاية، والثانية العين، فتركب الاسمان وحذف الألف في آخر إتما وفي أول إتط، ثم قبلت التاء. وجاء في تقاييد خطبة بيد الحاج عبد الرحمن البكراوي أن كلمة تمنطيط معناها في اللغة العربية حاجب العين. وتقع المدينة على بعد 12 كلم من أدرار، ولها منزلة كبيرة عند جميع التواتيين، لما اختصت به من كثرة أماكن الأولياء. الطيب عبد الرحيم الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتمنوية في السودان، بيروت: دار الكتاب الحديث، ط:1، 1415هـ/1994م، ص:.15

5-القبائل العربية:هم ثاني شريحة ، استقروا بالإقليم بعد البربر، ووصلوا في السنوات الأولى التي أعقبت الفتح الإسلامي لبلاد المغرب. وهاجرت العديد من القبائل العربية إلى الواحات الصحراوية، من أهمها نذكر: أولاد أهمالي، وعرب القدوية، وأولاد نسلام، وأولاد عباس. لتفاصيل أكثر حول الموضوع ينظر: الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية د، صفر 1396هـ/فبراير 1976م، الرباط، المغرب،

6-محمد الطيب بن عبد الرحيم (المعروف بابن بابا حيدة)، القول البسيط في أخبار تمنطيط، تحقيق: فرج محمود فرج، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977م، ص: 28.

7-أولاد أحمد: هم من عرب باكدال حاليا، ينظر: محمد الصالح حوتية، توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي) دراسة تاريخية من خلال وثائق محلية، ج:1، الجزائر: دار الكتاب العربي للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة.

8-أولاد نسلام: من سكان تمنطيط، ينتسبون إلى قبائل سعيد رياح، وهم أهل نجدة وقوة ونخوة. كانت قبائلهم سبعة منهم أولاد اليتيم، ومن قصورهم أولاد ميمون وأولاد إسماعيل. ينظر: محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 17.

9-أولاد غنوم: ينتمون إلى أولاد أحمد الدين يسكنون بتيمي، انتزعوا الرئاسة من قبائل تمنطيط، وكان رئيسهم محمد بن عبد الله بن خدا. وأتى بهم إلى تمنطيط أولاد ملوك. ينظر: المصدر السابق، ص: 26.

10-الموسوعة المغربية، المرجع السابق، ص: 208.

11-المرجع نفسه، ص: 73.

12-كانت أولى الحملات السعدية على الواحات التواتية سنة 960هـ/1552م، وجهها مولاي زيدان وأخوه الناصر، ولكنها منيت بالفشل. بعدها وجهت حملة ثانية لإتباع منطقة توات لسلطة المغرب الأقصى بتاريخ 965هـ/ 1557م، على يد الشيخ المهدي، وللمرة الثانية يكون مصيرها الفشل، ثم تلتها حملات أخرى إلى أن تم إخضاع المنطقة لسلطة السعديين سنة 990هـ/1582م. لمعلومات أكثر حول الموضوع ينظر: ابن أبي الزرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.

13-ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 27.

14-ينظر: بن عبد المومن بهية، الحياة الاجتماعية بإقليم توات خلال القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر ميلاديين (18-19م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، السنة الجامعية: 1426-1427هـ/2005-2006م، ص:

15-المرجع السابق، ص: 29.

16-المرجع نفسه، ص: 30.

17-البلبالي ابو عبد الله سيدي محمد عبد الرحمن، غنية المقتصد السائل فيما وقع في توات من القضايا والمسائل، نسخة مصورة بمخبر المخطوطات بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران، باب الإجارة والأكرية، ص: 439.

18-المصدر نفسه، ص: 439.

19-فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 31,

20-الموسوعة المغربية، المرجع السابق، ص: 142.

21-بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 61,

22-المرجع نفسه، ص: 62.

23-**أوقية**:اعتاد الناس من العهد الحسني تسمية الدرهم بالأوقية للتمييز بينه وبين الشرعي الذي تضاعف وزنه، والأوقية معناها 600 حبة شعير وتساوي عند الفقهاء 40 درهما أو 2.008 حبة شعير. ينظر: الموسوعة المغربية، ص: 47.

24-أحمد العماري، المرجع السابق، ص: 35.

25-بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 62.

26-**المرابطون**:يطلق هذا الاسم في السوس والصحراء الشرقية والغربية على سلالة المرابطين، أي سكان الربطات الذين رابطوا في سبيل الله للجهاد والعبادة والاعتكاف، وكانت هده الرباطات مقامة في الثغور والحدود. ينظر: الموسوعة المغربية، ص: 194.

27-المرجع السابق، ص: 63.

28-المرجع نفسه، ص: 63

29-المرجع نفسه، ص: 63.

30-**يحي بن يدير التدلسي (ت 877هـ/1472م)**:كان يدرس الصبيان مبادئ اللغة العربية والقرآن الكريم، عكف على شرح مختصر خليل وفروع ابن الحاجب والمدونة، درس علم العقيدة والتوحيد وكانت شهرته في الفقه، تخرج على يديه العديد من شيوخ توات. ينظر: التبكتي أحمد بابا، الكشف والبيان لحكم مجلوب السودان، نسخة مصورة بمكتبة الأستاذ أحمد حمدي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، ص: 637.

31-**عائلة العصنوني**:يعود نسبها إلى بني العباس القريشي وقيل إلى الحسين بن علي رضي الله عنه، وأول من تولى القضاء منهم الشيخ عبد الله العصنوني وأخوه بن أبي بكر وذلك سنة 862هـ/1475م، تولى القضاء سنة 914هـ/1508م. ينظر: محمد الطيب، المصدر السابق، ص: 31.

32-**محمد بن عبد الرحمن البلبالي (1155-1244هـ/1742-1828م)**:هو أبو عبد الله سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن البلبالي، من علماء توات. أخذ العلم عن محمد بن عبد الله الونقالي. تولى التدريس والخطابة بجامع أولاد علي بن موسى، كما تولى قضاء الجماعة التواتية. ينظر: البلبالي، المصدر السابق.

33-عبد العزيز البلبالي (1190.1261هـ/1775.1845م):هو سيدي محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد الرحمن البلبالي، تفقه على يد والده والشيخ محمد بن عبد الرحمن بن عمر التنلاني، كان عالما ورعا وأديبا وشاعرا، له اعتناء بالنحو فلقبه والده بسيبويه، قام مقام أبيه في التدريس والقضاء، وخلف لنا فتاوى وأشعار عديدة. ينظر: بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 65.

34-المرجع نفسه، ص: 66.

35-البلبالي، المصدر السابق، باب القضاء، ص: 623.

36-المصدر نفسه، باب الشهادات، ص: 670.

37-فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 45.

38-بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 67.

39-المرجع نفسه، ص: 69.

40-يحي بوعزيز، المرجع السابق، ج:2، ص: 144.

41-فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 80.

42-المرجع نفسه، ص: 35.

43-بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 73.

44-المرجع نفسه، ص: 74.

45-الدكالي:يأتي في المرتبة الثالثة بعد دكالي تتروكوك وتيميمون بالقورارة، فهو أقلهم خاما وفانا، مقسم إلى أشرطة أفقية، تبدأ بالأشرطة الكبيرة ذات اللون الأحمر، وتتبعها أشرطة أقل عرضا صفراء اللون. ينظر: فرج محمود فرج، المرجع السابق، ص: 43.

46-المرجع نفسه، ص: 80.

47-البلبالي، المصدر السابق، باب الإجارة والأكرية، ص.ص: 447.448.

48-بن عبد المومن بهية، المرجع السابق، ص: 81.

49-المرجع نفسه، ص: 82.

50-المرجع نفسه، ص: 82.